لمسات من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

د . علي اللافي جولق ـ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

إن الحمد لله نحمد ه ونستعينه ونستغفره و نتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،قال تعالى: (يأيها الذين آمنو ا اتقوا الله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)سورة آل عمران ،الآية(102)

وقال تعالي :(يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)سورة النساء الآية (1). وقال تعالى :(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله, فقد فاز فوزا عظيما) سورة الأحزاب ، الآية (70-71).

أما بعد...

فإن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم موضوع مهم ،فهو يمس جانبا مهما من العقيدة الإسلامية يتصل بإثبات صدق النبوة وألوهية القرآن الكريم ، و للموضوع أهمية أخرى ، إذ يتصل بدراسة الجانب البياني البلاغي في القرآن الكريم ، فهو أهم عناصر الإعجاز في القرآن ، هذه الأسباب هي التي دفعتنا لاختيار هذا البحث الذي تم تقسيمه إلى تمهيد وثلاثة مباحث .ففي التمهيد ذكرنا مفهوم الإعجاز في اللغة والاصطلاح

و أشرنا إلى جملة من الآيات الكريمة التي تحدث الناس بأن يأتوا بمثل القران ومعارضته وو قفنا عند مفهوم الإعجاز النفسي باعتباره أكثر ألوان الإعجاز اتضاحاً وبروزاً ، وفي المبحث الأول درسنا أنواع الإعجاز غير اللغوية ، وهي الإعجاز بالآخبار بالغيب ، والإعجاز التشريعي و الإعجاز العلمي ، والإعجاز العددي ، والمبحث الثاني تم فيه دراسة الصورة البيانية في القرآن الكريم ، ولقد اخترنا آيات عدة تتضح فيها الصورة التشبيهية ، والصورة الاستعارية ، وفي المبحث الأخير درسنا صورة من صورة الإعجاز النغمي الموسيقي في جملة من الآيات والسور القرآنية الشريفة ، و كانت خاتمة البحت إيجازاً لأهم النقاط الإعجازية التي توصلنا إليها في البحث ، وبعد ذلك ذكرنا المصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة .

تمهيد :

والعجز لغة الضعف ، و عجز عن الشيء عجزا فهو عاجز أي ضعيف ومنه جاء في القران الكريم حكاية عن ابن آدم حين قتل أخاه قال تعال : (قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاواري سوءة أخى فأصبح من النادمين) سورة المائدة ، الآية(31) ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم ما أعجز به الخصم عند التحدي وأنكسه وغلبه فيما أراد.

ولا يختلف المعنى الاصطلاحي عن اللغوي فالمعجزة أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوة النبوة قصد بها إظهار صدق من أدعي أنه رسول من الله ، أو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة (1).

وقد تحدى القرآن الكريم من أنكر كونه كتاباً سماوياً و دعاهم أن، يأتوا بمثلة في أيات عديدة كقولة تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثلة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)سورة الإسراء ،الآية (88)

وقوله تعالى :(فليأتوا بحديث مثله إن كنتم صادقين) سورة الطور، الآية (34).

وقوله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نَزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقينَ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)سورة البقرة ، الآية (23-24).

وقوله تعالى : (أم يقولون افتره قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صداقين) سورة هود الآية ،(13).

وقوله تعالى :(وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) سورة سبا، الآية (43).

والمعجزة تناسب فنون العصر ،أي فنون عصر الرسالة ، فمعجزة موسى عليه السلام

كانت العصا بسبب أن، فن السحر كان طاغياً و شائعاً في عصره ، ومعجزة عيسى عليه السلام هي إبراء الأبرص والأكمة لأن الطب في عصره بلغ ذروته من الازدهار وفي حالات كثيرة يقف عاجزاً عن إبراء أمراض مستعصية عن الشفاء مثل الأكمة والأبرص ،فتأتي المعجزة لتوكيد حقيقة دعوة النبوة ، وكذلك القرآن إذ يتضمن الإشارة إلى معجزات كثيرة سنتحدث عنها في المبحث الأول ، لكن تبقى أو يبقى أهم جانب من جوانب الإعجاز هو الإعجاز اللغوي البياني ولقد تحدى القرآن العرب وهم أرباب الفصاحة به فعجزوا مع حرصهم الشديد على ذلك معاداة لهذا الكتاب الذي سفه أحلام العرب لعكوفهم على عبادة آلهة من الحجر والخشب وغير ذلك من ألوان الوثنية و الجاهلية (2).

الإعجاز النفسي :

إن قارئ القرآن أو سامع القرآن تأخذه الهيبة و الخشوع أمام آيات القرآن حتى و إن كان لا يؤمن به لما للقرآن من هيبة وسطوة تسحر النفوس والقلوب وهذا اللون يسمى بالإعجاز النفسي .

والروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله و آياته خطرة وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً و يودون انقطاعه لكراهتهم له ،قال تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم)سورة الزمر الآية (23).

وقال تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) سورة الحشر، الآية(21).

وهناك حوادث تاريخية تؤكد هذه الحقيقة وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي صلى الله علية وسلم فيما جاء به في خلاف قومه فتلا عليه قوله تعالى : (حمَ تنزيل من الرحمن الرحيم)إلى قوله تعالى (صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) سورة فصلت ،الآية (1-13).

فأمسك عتبة بيده على فم النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبة مصغ ملق يدية خلف ظهره معتمدا عليها حتى انتهى إلى سجدة فسجد النبي صلى الله عليه وسلم ،وقام عتبة لا يدري بما يراجعه ورجع إلى أهلة ولم يخرج إلى قومة حتى أتوه فاعتذر لهم ، وقال :لقد كلمني بكلام الله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول (3).

المبحث الأول :

أنواع الإعجاز في القرآن الكريم

الإعجاز بالإخبار بالغيب :

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيبات)وذلك برهان ساطع ،ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، و إنما كلام علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية ولو كان من صنع محمد- كما زعموا- لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية بوقوعها على خلاف ما أخبر ولافتضح أمره بالكذب الصريح وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الكذب على الله.

فمن هذه الأخبار الغيبية إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد أن انكسروا في الحرب السابقة وذلك في قوله تعالي :(الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)سورة الروم الآية (1-5).

فنزلت الآية الكريمة تبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس في مدة وجيزة تتراوح بين بضع سنين ، لأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة ، فلما نزلت الآية الكريمة راهن أبوبكر الصديق بعض المشركين

وهو(أمية بن حلف) على مائة ناقة إلي تسع سنين ، ولم تمض المدة حتى وقعت الحرب بين الفرس والروم فانتصر فيها الروم وتحققت نبوة القرآن وذلك سنة622 ميلادية الموافقة للسنة الهجرية النبوية ، وانتصر المسلمون يومها في بدر ، وكسب أبو بكر الرهان فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالتصدق به .

يقول الزمخشري :(وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وإن القرآن من عند الله لأنها أنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله).

التنبؤ بدخول الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة أمنين مطمئنين :

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة أمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم ، وقالوا :إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محرمين يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حربا وإنما يقصدون العمرة والنسك ،ولكن قريشاً صدتهم وكادت تقع الحرب بين المسلمين والمشركين لولا أن رسول الله رضي معهم بالصلح إيثاراً منه للسلم وحباً للسلام العام ،وكان من شروط ذلك الصلح أن يرجع الرسول ومن معه في ذلك العام على أن يدخلوا مكة في العام القادم ، و اتخذ المنافقون الضعفاء الإيمان من ذلك سبيلا إلى الطعن والدس واللمز حتى قال رئيس المنافقين (عبدالله بن أبيَ)والله ما حلقنا ولا قصرنا

ولا رأينا المسجد الحرام ، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة وهي (دخول مكة ، وأداء النسك ،والأمن من قريش)، على الرغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام وقد أنجز الله وعده في الأمر ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين .

وفي قوله تعالى :(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ءامنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا)سورة الفتح ، الآية:(27) .

تنبأ القرآن بانهزام المشركين قبل وقوع الحرب وذلك في قوله تعالى في سورة القمر :(سيهزم الجمع ويولون الدبر)سوره القمر(45) ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أي جمع الذي سيهزم ؟ فلما كانت غزوة بدر رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يثب في الدرع ويقول :(سيهزم الجمع ويولون الدُبر) فعرف عمر تأويلها.

تنبأ القرآن بذلك المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش وذلك في قوله تعالى في سورة الدخان:(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون إنا كاشفون العذاب قليلا إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون)سورة الدخان ، الآية:(10-16).

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة أن أهل مكة لما كذبوا رسول الله صلى الله علية وسلم واستعصموا وتمردوا عليه، دعا عليهم فقال :اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأدخلهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه (أبو سفيان)
فقال :هلكوا فادعوا الله لهم فأنزل الله هذه الآية الكريمة.
التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان وذلك بقوله تعالى:(هو الذى أرسل رسوله، بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)سورة الصف الآية :(9)

وكذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالى :(وعد الله الذي ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستحلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)سورة النور ،الآية (55).

وكل هذه –وأمثالها في القرآن كثير- إخبار عن المستقبل وقد تحققت جميعها ، وهذا أمر خارق للعادة ، فكان وجها من وجوه الإعجاز أن مثله لا يتفق إلا بالإخبار من عند الله جل وعلا ، ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء بها الفرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي الذي اطلع الله ورسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها ولهذا ذكر الله عزو جل ثناؤه قصة نوح ثم اعقبها هذه الآية قوله تعالى :تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) هود الآية (49).

الإعجاز التشريعي :

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر في القديم والحديث ، فالقرآن الكريم هو الذي وضح أصول العقائد وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب ، وهو الذي نظم حياة الأسرة و المجتمع ووضع أعدل المبادي الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة ، الحرية ، العدالة التي يسمونها الديمقراطية ، الشورى) إلى غيرها من أسس الحضارة والتشريع الذي تسعى إليه المدنية الحديثة .

ففي العقائد دعا القرآن الكريم إلى عقيدة طاهرة سامية ،واضحة جلية ،عمادها الإيمان بالله عز وجل والتصديق بجميع أنبيائه ورسله ، والإيمان بجميع الكتب السماوية مصدقاً لقوله تعالى : (ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) سورة البقرة ، الآية (285).

ودعا أهل الكتاب (اليهود و النصارى)إلى كلمة سواء ، لا إحراف فيها ، ولا التواء ، قال تعالى : (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
و لا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) سورة آل عمر ان، الآية (64) .

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائمها ، فشرع الصلاة ، والصيام و الحج ، والزكاة ، وسائر أعمال البر والطاعة ، وليست العبادة في الإسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان ، بل هي تشمل كل عمل خير ، وفعل بر أو طاعة ، ولهذا فإن العلماء قرروا أن كل عمل يقصد به الإنسان وجه الله يكون عبادة وقالوا : (إن النية الصالحة تقلب العادة إلى عبادة)

فإذا عمل الإنسان و احتر ف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام و الإنفاق على أهله وعياله ،و إذا أكل او شرب بقصد التقوي على طاعة الله كان عمله عبادة يثاب عليها و الأصل في هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم (وإنك لن تنفق تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى اللقمة تضعها في فيَ امرأتك) الحديث .

وقوله صلى الله عليه وسلم :(وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله: آياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام لكان عليها وزر ؟فذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر) و إذا أمعنا النظر في أصول العبادات المفروضة نجد أن الإسلام قد وسعها ونوعها ، وجعلها ضروباً متفاوتة ، فمنها ما هو (عبادة مالية) كالزكاة و الصدقات ، ومنها ما هو عبادة (بدنية) كالصلاة والصيام ومنها ما هو يجمع بين الاثنتين (عبادة مالية و بدنية) كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال و النفس ، وهذا التنوع له مغزاه وحكمته السامية وذلك لئلا تألف النفس شيئاً فتصبح لها عادة أو تمل وتضجر من العبادة الواحدة .

وفي مجال (التشريع العام) نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني ، والجنائي ، والسياسي ، والاقتصادي ، ووضع أسس التعامل الدولي في حالة السلم والحرب على أكمل وجه و أعدل نظام ، ففي أمر المعاملات حرم الله أكل أموال الناس بالباطل (يأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)سورة النساء ، الآية (29) ودعا إلى الإشهاد عند إبرام البيع و بكتابة الدين ، قال تعالى :(يأيها الذين ءامنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل) سورة البقرة ، الآية (282).

وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود ، و أوجب على الأمة تنفيذها من أجل حماية المجتمع وصيانته من الفوضى و الاضطراب و تأمن الأمة على حياتها و مستقبلها .

و أموالها وأعراضها لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق (الأمن والاستقرار).

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم و أعظمها خطراً على مستقبل الفرد والجماعة ،و وضع لكل منها عقوبات مقدرة و لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها أو التساهل في تطبيقها ، وترك ما سوى ذلك من الجرائم من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم ، ينفذ فيها ما يراه من العقوبة ، وعلى ضوء السنة النبوية المطهرة ، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس ، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية .

أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمس : (جريمة القتل جريمة الزنا، جريمة السرقة ، جريمة قطع الطريق ، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف)، ولعل أروع مثل للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية ، حيث قضى على كل فساد ، و استأصل كل جريمة من نفوسهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، فملكوا الدنيا و سادوا العالم .

الإعجاز العلمي :

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية ، التي سبق إليها القرآن قبل أن يكتشفها العلم الحديث ، ثم عدم تعارضه مع ما يكتشفه العلم من نظريات علمية حديثة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جل شأنه (سنريهم ءايتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)سورة فصلت، الآية:(53).

والقرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة او فيزياء ، وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد)و كتاب (تشريع و إصلاح) ، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإرشادات الدقيقة والحقائق الخفية على بعض المسائل الطبيعية والطبية و الجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحيا من عند الله ، فمن المقطوع به أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ و لا يكتب وأنه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة ، حيث لم تكن علوما ، ولا معارف ولا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية ، لأن قومه وعشيرته كانوا(أميين) ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره ، ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب ، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد-كما يزعم بعض المستشرقين إنما هو وحي من الله ، أنزله على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين.

إن القرآن الكريم في طريقة عرضه الهداية والإعجاز على الخلق ، قد حاكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلي الكون وما في الكون من سماء وأرض وبر

وبحر، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر، ونواميس وسنن ، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقا كل التوفيق ، بل كان معجزا أبهر الإعجاز لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، في حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي نشأ في أمة جاهلة ، ولا صلة له بتلك العلوم وتدوينها

ولا إلمام بكتبها ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ، قال سبحانه وتعالى مقررا لهذا الإعجاز العلمي :(وما كنت تتلو من قبله من كتب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو ءايات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون)سورة العنكبوت ، الآية :(48-49).

ومن الآيات التي تشير إلى حقيقة علمية كونية أثبتها علم الفلك المعاصر وهي كروية الأرض كقوله تعالى : (خلق السموات والأرض بالحق يكور اليل على النهار ويكور النهار على اليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) سورة الزمر ، الآية : (5) ، وقوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحاها)سورة النازعات ، الآية :(30)

وقوله تعالى :(ذلك بأن الله يولج اليل في النهار ويولج النهار في اليل وأن الله سميع بصير) سورة الحج ،الآية (61).

وقوله تعالى :(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) سورة الانعام ،الآية (125)،فهذه الآية تؤكد وتشير إلى اختلاف الضغط الجوي .

ومن الآيات ذات الإعجاز العلمي الآيات التي تشير إلى تطور الجنين داخل رحم أمه ومروره بسلسلة من الأطوار الجنينية كقوله تعالى :(ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مكينٍ) سورة المؤمنون ،الآية (13) وقوله تعالى : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيءٍ عنده بمقدارٍ)سورة الرعد ، الآية (8) وقوله تعالى :(خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) سورة النحل ، الآية (4).

وقوله تعالى :(يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من علقةٍ ثم من مضغة مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) سورة الحج ،الآية (5).

والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه ، ولايزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون ، لا يزال أولئك يشرح القرآن ويفسره ويوضحه من نواح كثيرة من أسراره وإعجازه مصدقاً لقوله تعالى :(سنريهم ءايتنا في الأفاق وفي

أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) سورة فصلت ، الآية (53) وقوله تعالى : (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سورة يوسف ، الآية (21)

الإعجاز العددي :

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود إن لكل لفظ به و لكل حرف فيه وضعاً فنياً مقصوداً ولم تراع في هذا الوضع الآية ولا السورة وحدها ، بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله ، لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق.

لقد تبين أن (الدنيا) تكررت في القرآن بقدر (الآخرة) فقد تكرر كل منهما (115) مرة ، وأن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكررت كل منهما (88) مرة ، وأن، الموت ومشتقاته بقدر الحياة فقد تكرر كل منهما (145) مرة وهل الموت إلا للأحياء؟

وإن الصيف والحر بقدر لفظ الشتاء والبرد ،فقد تكرر كل منهما خمس مرات(5)،وأن لفظ السيئات تكرر بقدر لفظ الحسنات ومشتقاتها ، فقد تكرر كل منهما (168) مرة .

وإن لفظ الكفر تكرر بقدر لفظ الايمان ،فقد تكرر كل منهما (17)مرة ،وتكرر لفظ كفراً بقدر لفظ إيماناً ، كل منهما 8 مرات ، وإنه تكرر ذكر إبليس بقدر لفظ الاستعاذة ، فقد تكرر كل منها (11)مرة ، وإن ذكر الكافرين تكرر بنفس عدد النار وهل النار إلّا للكافرين ، وإن ذكر الحرب تكرر بعدد الأسرى ، وهل الاسرى إلا من أوزار الحرب؟

وإن لفظ قالوا تكرر (332) مرة ،ومن العجب أن يتساوى هذا مع لفظ قل الذي هو أمر من الله إلى خلقه من قال قل (332)مرة فكان القول (332)مرة ، وأن لفظ الشهر تكرر (12) مرة بعدد شهور السنة ، كقوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) سورة التوبة الآية (36)

وإن لفظ اليوم تكرر (365) مرة بعدد أيام السنة ،و أن، لفظ الأيام تكرر (30)مرة بعدد أيام الشهر (4).

المبحث الثاني :

الصورة في القرآن :

الصورة في القرآن :

تمايز القرآن عن غيره من أساليب اللغة عند العرب ، ليس هو مما متاح لهم وإن كانت أدواته شائعة عندهم من قدرة التعبير و قوة اللغة بيد أن ما اشتمل عليه القرآن منها تعجز عنه قرائحهم رغم كونهم أهل صناعة الكلام سواء كان شعراً أو نثراً.

والصورة كأحد ما برع فيه العرب من فنون القول ، فقد كثرت التعاريف في تحديد مفهومها وما هيتها غير أنها على كثرتها تلك تتحدد أنها وسيلة الحواس والشعور ، أو هي إعطاء الفكرة المجردة شكلا محسوساً ، ومعنى ذلك أنها وسيلة للمتكلم لإيصال المعنى للقاريء أو المتلقي وتكون البلاغة بما تحويه من استعارة ومجاز هي أفضل تلك الوسائل (5)، فإن علماء البلاغة العرب يذهبون إلى أن البلاغة ما هي إلا وسيلة إلى إيضاح المعنى عن طريق ما نملكه من عنصر التصوير بما تحويه من تشبيه و استعارة ومجاز .

وفي عناصر البيان يركز عبد القاهر الجرجاني إنه يرى أن المجاز و الاستعارة والتشبيه والكناية على أنها عمل الإعجاز و أركانه والأقطاب التي تدور البلاغة عليه وعنها يقول : لم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز إلا ذكرها وجعلها العمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية وخصوصاً الاستعارة والمجاز(6).

وما كان للقرآن ذلك التأثير في أنفس سامعيه إلا لما كان له من وجوه الإعجاز والتي كان أكثرها أثراً و أولها ابتداء ذلك الأسلوب البياني و ما يتضمنه من تصوير بكل أدواته من تشبيه ومجاز عجزت العرب على مجاراته و الإتيان بمثله ، نقدم ما تضمنه القرآن من عناصر التصوير والبيان لبعض نواحي التصوير البياني في القرآن :

أولاً ـ التشبيه:

قوله تعالى : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) سورة الرعد ،الآية (14) فالآية الكريمة تتحدث في شأن عباد الأوثان الذين يتخذون آلهة غير الله وتصفهم بأنهم إذا دعوا آلهتهم لا يستجيبون لهم ، ولا يعود عليهم دعاؤهم بفائدة ،و قد أراد الله سبحانه وتعالى أن يقرر هذه الحال ويثبتها في الأذهان فشبه هؤلاء الوثنيين بمن يبسط كفيه إلى الماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه بداهة، لأنه يخرج من خلال أصابعه ما دامت كفاه مبسوطتين، فالغرض من التشبيه هنا تقرير حال المشبه(7).

قوله تعالى :(كمثل الحمار يحمل أسفاراً)سورة الجمعة ، الآية (5)فالتشبيه مركب من أحوال الحمار وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع من تحمل التعب في استصحابه.

وقوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقومٍ يتفكرون)سورة يونس ، الآية (24).

فإن فيه عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها و اغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء و أنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض (8).

ثانياً- في الاستعارة:

من ذلك قوله تعالى :(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) سورة ابراهيم ، الآية (1) ففي الآيات الكريمة مجازات لغويات في كلمتي الظلمات والنور قصد الأول الضَلال والثانية الهدى والإيمان فقد استعير الظلمات للظلال لعلاقة المشابهة بينهما في عدم اهتداء صاحبها ، كذلك استعير النور للهدى والإيمان لعلاقة المشابهة بينهما والقرينة التي تمنع من إدارة المعني الحقيقي في كلا المجازين قرينة حالية من سياق الكلام(9) وقوله تعالى :(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)سورة الانبياء الآية (18)، فالقذف والدمغ مستعاران وهما محسوسان ، والحق والباطل مستعار لها وهما معقولان ، ففي الآية تم تصوير الحق بالقذيفة الثقيلة وذلك تجسيم ، وفيه تشخيص ففي دمغ الحق للباطل و إزهاقه إياه ، وفيها تخيل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدثه حركة القذف ثم الدمغ ثم الإزهاق فإنها أصوات شداد توشك أن تكون صدى لعظام الباطل وهي تتحطم وتتقعقع(10)

ثالثاً- المجاز:

قال تعالى : (يهامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب) سورة غافر الآية (36) ففي إسناد بناء الصرح إلى هامان وزير فرعون مجاز عقلي علاقته السببية لأن هامان لم يبن الصرح بنفسه وإنما بناه عماله ، ولكن لما كان هامان سبباً في البناء أسند الفعل إليه(11) ومن الإعجاز اللغوي إطلاق اسم الكل على الجزء نحو قوله تعالى (يجعلون أصابعهم في ءاذانهم من الصواعق حذر الموت)سورة البقرة الآية (19)،أي التعبير هنا بالأصابع إشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في القرار، وفي ذلك تصوير لحالتهم النفسية وما أصابهم من الذعر والهلع وهم يولون هاربين(12)

المبحث الثالث :

الإعجاز في نغم القرآن :

إن هذا القرآن في كل سورة منه وآية ، وفي كل مقطع منه ، وفقرة ، وفي كل مشهد منه أو قصة ، وفي كل مطلع منه وختام ، يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى مملوء نغما ، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب المفاضلة فيه بين سورة وأخرى ، أو الموازنة بين مقطع ومقطع ، وتفرد سورة منه بنسق

خاص إنما هي ظاهرة اسلوبية بارزة تناسب جو السورة ، فالقرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه ، إلا أنه متنوع موسيقي في أنغامه وألحانه (13).

وإن هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل أية من آياته ، فتكاد تستقل بجرسها ونغمها بتصوير لوحة يكون فيها اللون زاهياً أو شاحباً ، ولا يكون فيها الظل شفيفا أو كثيفا (14) .

وقد نرى لونا أزهى من نظرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله ، ولونا أشد تجهما من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى :(وجوه يومئذ ناضره إلى ربها ناضره ووجوه يومئذ باسرة تظن أن نفعل بها فاقرة) سورة القيامة ، الآية :(22-25)

لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة "ناضره" بتصوير أزهي لون وأبهاه ، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة باسرة برسم أمقت لون

إن السامع لصوت السين المكررة يستشف رقة جرسها ويستريح إلى خفة وقعها في قوله تعالي :(فلا أقسم بالخنسَ الجوار الكنسَ والليل إذا عسعسَ والصبح إذا تنفس)سورة التكوير ، الآية (15-18).

بينما تقع الرهبة في صدره حين يسمع لاهثا مكروبا صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة "تحيد" بدلا من تنحرف "أو" تبتعد في قوله تعالى :(وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد)سورة ق ، الآية :(19) ، وفي قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)سورة أل عمران ، الآية :(185)

فلا يوجد في المعجم كلمة غير "زحزح" تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار وبسمعه ويكاد يصلاه (15).

ويأخذ القارئ من الغيظ ما يأخذ جهنم حين تسمع لفظ "تميز" من قوله تعالى :(تكاد تميز من الغيظ)سورة الملك ، الآية (8).

ويستولى عليه القلق وهو يكرر هاء السكت في أكثر فواصل سورة الحاقة، فينسى وهو يتلو قوله تعالى :(ما أغني عني ماليهَ هلك عني سلطانيه)سورة الحاقة ، الآية (28-29) وقارئ أو سامع القرآن يستشعر عنف لفظ "الكبكبة" في قوله تعالى :(فكبكبوا فيها هم و الغاوون)سورة الشعراء ، الآية (94).

فيتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوهم أو على مناخيرهم ،ويلقون إلقاء المهملين فلا يقيم لهم أحد وزناً.

فإن يكن هذا كله في اللفظة المفردة تعتبر مستقلة عن لوحة كاملة ، فكيف الآية التي تتناسق في جوها الكلمات أو في السورة يسري فيها كلها في فواصلها و مقاطعها وفي الفاظها وحروفها وفي انسياقها حتى لو كان على حدة مقطع واحد من مقاطعها ، أو موضوع واحد من موضوعاتها الجزئية ، والتمس في أجزائه

النغم و الايقاع لكان في كل جزء منه نغمة ، وفي كل حرف منه لحن من ألحان السماء.

وعلى هذا الأساس من انفراد القرآن بحفاظه على تناسقه الإيقاعي سواء أحللت على تعاقب سورة واحدة كاملة أم اقتطعت بغير عمد بعض أجزائه ، وإذا تذكرنا أن ابتهال الصالحين كثير في القرآن رغباً أو رهباً طمعاً أو خوفاً استعجالاً لخير او دفعاً لشر(16)أدركنا من أسرار التنغيم ينبعث من كل مقطع في كتاب الله ومن سحر القرآن أن النغم الصاعد فيه خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة ، وينشىء في كل لحن مرتعاً للخيال فسيحاً فنتصور مثلاً- نحن نرتل دعاء زكرياء –شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة وشعاع من نور ، ونتمثل هذا الشيخ الجليل _على وقاره_ متأجج العاطفة ، متهيج الصوت، طويل النفس ، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير ، بل أن زكريا في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه و أساه خوفاً من انقطاع عقبه، وهو قائم يصلى في المحراب ينادي اسم ربه نداءً خفياً، ويكرر اسم ربه بكرة وعشياً ويقول :في لوعة الإنسان المحروم وفي كل إيمان الصديق الصفي : (إذ نادى ربه ندآءً خفياَ قال ربِ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِ شقياَ وإني خفت المولى من وراءى وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياَ يرث من ءال يعقوب واجعله ربِ رضيا) سورة مريم ،الآية (3-5).

وأن البيان لا يرثى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بآياتها المشددة و تنوينها المحول عند الوقوف ألفا لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق فهذه الألف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها(شقياً – ولياً- راضياً) مع عبدالله زكرياء ينادي ربه نداءً خفياً(1

الخاتمة :

في هذه الخاتمة نذكر أهم ما توصل إليه الباحث :

1 – اتضح في البحث أن مفهوم الإعجاز في اللغة هو الضعف ولا يختلف المعنى الاصطلاحي له عن المعنى اللغوي كثيرا ، فالمعجزة في الاصطلاح أمر خارق للعادة مقرون بدعوى التحدي بقصد إظهار صدق من ادعى النبوة ، وهو أمر سالم من المعارضة .

2- تضمن القرآن الكريم في آيات كثيرة أخبارا عن الحوادث المستقبلية بشر أو خير و وافق الواقع وصدق في ذلك انتصار الروم على الفرس ونصر المسلمين على المشركين يوم بدر .

3- القرآن الكريم أسس مجتمعا يتسم بالسعادة والانسجام ويضمن العدالة الاجتماعية بين الأفراد من خلال آيات الأحكام التي تؤسس لقوانين وشرائع عاملة بين الناس وهذا الأمر يؤكد إعجازه التشريعي .

4- حث القرآن على العلم وأعلى من شأن المعرفة فهو كتاب هداية ، وحث الناس على التأمل في الآفاق (الكون) وفي أنفسهم للوصول إلى حكمة الخالق وعظمته ، وهناك آيات كثيرة تضمنت حقائق علمية توصل إليها العلم الحديث بعد قرون من الزمن منها : نشأة الجنين ، كروية الأرض ، وهذا يؤكد إعجاز القرآن .

5- الكثير من ألفاظ القرآن ترد وتتكرر بنحو إعجازي مقصود .

6- تميز القرآن بإعطاء الفكرة المجردة شكلا محسوسا في استعماله للصورة الفنية

البلاغية على اختلاف أنواعها من مجاز وتشبيه واستعارة .

7- تميز القرآن بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى فهو مملوء نغما في كل مطلع سورة أو ختامها بما يؤكد تفرد أسلوب القرآن وتميزه وإعجازه

الهوامش :

1 – ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن ،للسيوطي ،تحقيق على محمد البجاوي' دار الثقافة العربية، ص6-1

2- ينظر في تاريخ القرآن وعلومه ، د. محمد الدسوقي ، ط1 ، طرابلس ص 180

3- معترك الأقران في إعجاز القرآن ،للسيوطي، تحقيق محمد البجاوي دار الثقافة العربية ،ص242

4- التعبير القرآني ،فاضل السامرائي ، دار عمان ،الأردن ،ص12

5- الصورة الشعرية في الكتابة الفنية الأصول والفروع، د. صبحي البستاني، ط1،1986،دار الفكر اللبناني ،بيروت ،ص10

6- ينظر في علم البيان ، د. عبدالعزيز عتيق ، ط.3، 1983، بيروت لبنان ، ص328.

7- نفس المرجع ، علم البيان ، د. عبد العزيز عتيق ،ص 108.

8- ينظر مباحث علوم القرآن ، د . صبحي الصالح ،ط 19 ، دار العلم للملايين 1996م، بيروت لبنان ،ص328.

9- الصورة الشعرية في الكتابة الفنية الأصول والفروع، د. صبحي البستاني مرجع سابق ص10.

10- ينظر في علم البيان ، د. عبدالعزيز عتيق ، ط.3، 1983، بيروت لبنان ، ص147-148..

11- المرجع نفسه ص147-148.

12- مباحث في علوم القرآن ، د .صبحي الصالح ، مرجع سابق ، ص329.

13- المرجع نفسه ص 334.

14- المرجع نفسه ص 334.

15- المرجع نفسه ص 334.

16- المرجع نفسه ص 338.

17- ينظر الأسلوب في الإعجاز البلاغي ، محمد كريم كواز ، ص 27.